من أساطير الاغريق

٤ ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

تتمـــة

أقلعت الآرجو وطفقت تطوى عباباً من بعده عباب ، ولجة من ورائها لجة ؛ وبدا الطريق كأنه يطول ، والأفق كأنه يحاول ، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز إيتيس وابنته وولى عهده ...

ونمى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه ، وهب من فوره يمد أساطيله ليقتفى آثار جاسون ، عسى أن يقبض عليه ، ويعود بابنيه وأعز كنزه ... وانطلق هو الآخر يطوى العباب ، ويتواثب بأسطول فوق أعراف الموج ، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم ، ويستحثهم ويشجعهم ، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء فى حمرة الشفق ، أو المطوّقة الورقاء فى صحيفة الأفق ، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع ، واستبقوا إليها من كل فج ؛ وكانت سفينة الملك فى المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب ؛ ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصى الموج نحوهم ، فراحوا يدورهم يعملون المجاديف ويُهدْهِدُون الشراع للريح ؛ وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر فجمد عليه يبرده . وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفَرَق ... وفكرت فى ألف حيلة وألف سحر ، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد ، وبطل سحرها كله فهو لاينفع ولا يفيد ... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رميـة سهم ... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادى ، ويتوسل أن تعيد إليـه ابنه ... ابنه الأوحد ...

أبستروس ... « ميديا ! ابنتى ! أنا أبوك ! أتوسل إليك ! ردى علىّ ولدى واذهبى أنى تشائين ! إنه أملى فى الحياة ! إنه ولي عهدى وحافظ ذريتى ! ميديا ! أرسليه فى زورق واذهبي أنت ... ! »

ولكن الفتاة غَلّقتْ فؤادها وسدّت بالجحود سمعها ! واأسفاه ! بالقاسية ! بالبرودة القلب الذى لايحس ، والنفس التى لاترحم ؟ لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها ، ثم شحنت سِكّينًا وأغمدته فى صدره ، وتدفق الدم الحار ... دم الشباب الفينان ... بلطخ اليد الأثيمة المجرمة ... اليد الشقية ، يد ميديا التى طوّعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها ، ثم تقطيعه إربًا ... ؟

ماذا خطر برأس الساحرة ؟ أواه ! لقد أخذت تمزق أخاها مِزَقًا مِزَقًا ، وكلما اقتطعت منه شلْواً قذفت به فى الماء ، وأبوها المسكين المجنون يرى ، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله ، ثم يتلبث عند الشلو الذى يليه ... وهكذا دواليك ، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز ... الرأس الصغير الذى كان يبسم لأينع الآمال ، ويحلم بأجل الآمانى ... رأس أبستروس ... ولي العهد ، والأمل المدّخر لأمة بأسرها ...

لقد انتشر الظلام فى عينى الملك ... وغمر قلبه قنوط مر ... وأمر الملاحين فطووا الشراع ، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن فى بحر هادئ كئيب ، وكله حزن ؛ وجلس إيتيس وبين يديه أشلاء ولده ينسلها بدموعه ، ويخضبها بالدم الذى تذرفه عيناه

— « آه يا بنى ! أية فروة وأى كنز ؟ ليتك خلصت لى بكل مُلكى ! ميـديا ! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة ! تبت يداك يا أغدر البنات ! ألا ليت أمك لم تلدك ... ! أبستروس ! رد علىّ أيها الحبيب ... ! » وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن !

* * *

ولكن جاسون ما خطبه ؟ ! مسكين ! لقـد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع ! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب

هذا الإثم ... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جنى ، فسكت ! وهل كان فى وسعه أن يفعل شيئاً ؟ ! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذى أهلك جيشاً بأكمله ؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة ؟ ! بيد أنه عرف الآن ماذا كان يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل ! لقد كان السر الرهيب المطوي فى صحائف النيب هو الذى يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام ، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها !

وقد فكر جاسون فى ملكه الضائع المغتصب ، وفى أبيه الضعيف الطريد ، وفى عمه الجبار العتى ، وفكر فى قوة ميديا الخارقة ، فآثر أن يبقى عليها عسى أن تنفعه ... لهذا أظهر لها التودد ، وتعمل فى حضرتها البشاشة ... حتى وصلت الآرجو إلى إيولكوس ، حاضرة تساليا ...

وحمل جاسون الفروة الثمينة ، وقصد إلى عمه ...

وذهل پلياس ... وجعل يحملق فى الكنز العظيم الذى أتاه به ابن أخيه ... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق ... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعا ؟ !

— « ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم ؟ إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التى بين جنبيه ؟ ألا كم هلك أناس طمعوا فى فروة فركسوس ؟ مجلا قلكان ! وأرض مارس ! وجبل بأكمله ينبت من أنياب التنين ... ؟ والأفعوان الهولة الذى يحرس الفروة ؟ أظفر جاسون — هذا الفتى — بكل أولئك ؟ جاسون ابن أخى ؟ عجيب وحق الآلهة ... ؟ بل أسأله ، فلا بد من سر فى هذا الأمر ... » وسأله ، وتبسم جاسون ، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب فى جوانح عمه ، وظل يتغنى بشجاعته ، ويصف ما كان من ظفره بعجلى قلكان ، وحرثه الأرض الجبوب ، وغرسه أنياب التنين ، ثم هذه الحرب الزبون التى شبها عليه المردة وما كان من إفنائه لجموعهم ، وتلك الملحمة التى قتل فيها التنين الرهيب الذى وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة ... ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا

وأكرم عمه مثواه ... وكلما طلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش ، مطله وراوغه ، وزخرف له الأمانى ... حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به ، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها ، ولا يعكر عليه صفو الحياة أىّ من تلاميذ شيرون !!

* * *

ولقى جاسون أباه ، فراعه أن يرى كومة من العظام نخرها الكبر ، وجللها المشيب ، وأوهاها الحزن ، وأوهنها الألم المتصل ، ونامت تحت كوارث الزمان ... وبكى جاسون ! ولكن أباه انتهره وقال له : « أى بنى ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكى ! إنما يبكى النساء والمستضعفون من الرجال . على أنه ماذا يبكيك ؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم ، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتى له حينما عهدت بك إليه يهذبك ويؤدبك ... ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكا ، أما أنت فمن صباك فى إبان ، ومن عنفوانك فى ريعان ، وأنت بالعرش أحق منى وأولى ، وهو بك منى ومن عمك أليق ، ولن أغفر لك قعودك عنه ، وليس فى تساليا إلا شعب يحبك ، ورعية تلهج بالثناء عليك ، فشمر عن ساعدك ، واطلب حقك بالقنا ياجاسون »

وذهب الفتى وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه ، فلقى أول من لقى ميديا

— ماذا ، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبى ؟

— لا شىء ... لا شىء مطلقاً !

— لا شىء ؟ وكيف ؟ ألا تفهم ميديا ما فى نفسك ؟ حدثنى ولا تخف علىّ !

— لا شىء وحقك يا ميديا

— أوَ مصرٌّ أنت على كتمان دخيلتك عنى ؟ إذن لقد كان أبوك يعظك !

— أجل ! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة ...

— قل يا حبيبى ! تكلم يا جاسون !

— إن لك إلماماً تاماً بغرائب السحر ، وعلم التعاويذ والرُّقى ولقد نفعنى علمك فى أحرج مواقفى ... ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عجلىّ قلكان ، وحاربت المردة ، وقتلت التنين ... إنما فعلت كل أولئك بمعونتك ، ولى رجاء إليك ...

— رجاء ؟ أى رجاء يا حبيبى ؟ إنما أنت تأمر ...

— شكراً ! ألا تستطيعين يا ميديا أن تردى الشباب إلى أبى ؟

إنه رجل شيخ محطم ، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر ، كما تنحدر صفوانة من شاهق ... فهل عزيز على علمك أن تؤديه إلى ما ولى من الصبى ؟ ... خذى من عمرى فصلى عمره إن استطعت ! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلى ! ... »

— اطمئن يا حبيبى فليس أيسر مما طلبت ، وسأرده إلى سيرة شبابه بقليل من العناء ... وسأزيد فى عمره ما أحببت ... على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت ؟ !

* * *

لقد كان البدر تماً ، والليل الفضى الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة [1]، وكل ما فى البرية نائماً ساكناً ، والعشب الحلو كان نائماً كذلك ... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها ... وتلبثت قليلا تفحص الطبيعة الرائعة فى الأرض والسماء بعينيها الجبارتين ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رُقاها ... وترسل للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء وإلى القمر الحالم الساهم ... ثم سبحت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر ، وباسم تللوس ربة هذه الأرض العجيبة النائمة التى تنبت البقل والعشب لما تعمل ميديا ... وصلّت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار والغدران ، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب ، وصلت لجميع الآلهة ، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرقى ...

ثم سكتت ... وصمت حولها كل شىء ... حتى الرياح كتمت أنفاسها ... ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان ... ثم انفتح فيها باب كبير من ذهب ، وبرزت منه عربة عجيبة يجرها أفعوانان هائلان ، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمى ميديا ... وتقدمت الساحرة وهى تبتسم فركبت فى العربة ، وانطلق الأفعوانان يجرانها فى الهواء ، ويرفان بها فوق الوديان والغيران ، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض ، وفوق الغاب الساكن المستسر ، وفوق الأنهار والبحار ... وفوق كل شىء ... حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض حيث تنبت الأعشاب العجيبة التى تنفعها فى سحرها ... وهناك ... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقى البقل ذا الأسرار ؛ ثم ركبت عربتها وانسابت فى الهواء حتى أتت بيت جاسون ، فنزلت بحملها العجيب وعرج الأفعوانان فى السماء ...

وفى الصباح ، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شئ من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت ... وأمرت أن يخلى بينها وبين إيسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع ، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالين ... ثم إنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر ، والآخر باسم هيب ربة الشباب ، وذبحت لكل شاة سوداء فاحمة السواد ، ثم صبت على دمائهما صلاة للربتين من خمر ولبن ... وتوسلت بعد ذلك إلى پلوتو رب هيدز ، وإلى زوجه پروزرپين ، ألا يعجلا بقبض روح إيسون ... ثم بدحت نحو الرجل فتمتمت برُقية أسلمته إلى نوم عميق ، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التى حملتها من أقصى الأرض ، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة ، وشعرها المهدل يداعبه النسيم ، وصدرها المتكشف ناهد نحو السماء ... حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت ، وشحذت سكيناً ماضياً ، وجعلت تشمل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين ... ثم تناولت إداوتها التى حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار ، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق السحرى ما هو آية ، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط ، ومن البَرَد الذى جمعته أثناء رحلتها فى ضوء القمر ، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها ، وحوايا ذئب ، وبقايا من صدفة سلحفاة ، ومزقاً من كبد غزال ، ورأس غراب ومنقاره ، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة ؛ ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات ، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الإداوة بما فيها ، وتركتها تغلى وتفور ، وهى فيما بين هذا وذاك تعوذ وتهمهم ، وتتمتم وتغمغم ، ثم تُقلب ما فى الإداوة بغصن زيتون أملود ... فما كاد السائل يفور حتى نمت فى الغصن أفنان من الورق الأخضر ، وحبات من الزيتون يكاد زيتها يقطر منها ، وكلما نثرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينمو العشب فى إبان الربيع !

ثم شحذت سكينها مرة ثانية ، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته ، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه ؛ ثم إنها صبت من الإداوة فى الجرح وفى الفم ، كأنما

(١) المقصور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بنى أسد كما تقدم

تجعل منه مكان ماسال من الدم ... وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية فى جوارح الرجل الهدم المحطم ... فهذا شعره يَسْوَدُّ ويصير فاحماً غربيباً ... وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلىء باللحم والدم ، وهذا ظهره المحنى يستقيم ويمتلىء قوة وعنفواناً ، وهذا دم الشباب يجرى فى عروقه كقبل أن يكهل ، وها هو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهرى ، ويشب على إخصيه كأرشق مايفعل الصبيان !! وهاهو ذا الوجه يكتسى جمال العصر الخالى ... ثم ها هو ذا جاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه فى حلم ... ويعانقه ويهنئه ... ويشكر ميديا ... ويبكى !!

* * *

— أرأيت يا حبيبى ؟ أليست لك حاجة بعد ؟

— وكيف ياميديا ؟ إنى مفتقر أبداً إلى واسع علمك ، ومبين سحرك !

— أمهمة أخرى ؟

— أجل يا ميديا ! ألا ترين إلى والدى مطروداً من عرشه ، وإلىَّ يقتلنى الحزن من أجل ذلك ؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا فى ذلك ؟

— ولم لانقتل عمك ؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم ؟

— أنا ضعيف يا ميديا ... وهو رجل جبار وله جند ...

— إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك ...

* * *

وأخذ إيسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس ، ويعجبون لهذا الشباب الذى تدفق فى بردتيه ، فيسجدون له وإن منعهم الجند وطاردوهم ... وعلم بنات الملك بما ردّت ميديا على عمهم من رونق الصبى ، وما ألبسته من رواء الشباب ... وكان أبوهم قد بلغ من الكبر ، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب ، فوددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع إيسون ... واتصلن بالساحرة ، وأغرينها بالمال ، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبى ، حتى لا يغلبه على الملك إيسون ولا ولده جاسون ... وأحضرت الإداوة بما وعت من عشب ، ثم جيء لها بالشاة السوداء ، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية ، وكانت الإداوة تغلى بما فيها من سائل عجيب ، قفزت الشاة فكانت فى الإداوة ، ثم قفزت منها فكانت حَمَلاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب ... وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه ... ثم جيء بالملك وحراسه ليشهدوا ... وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس پلياس وصحبه وحراسه ، فسقطوا وغطوا فى سبات عميق ... وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره لتبدأ هى عملها ... فتلكأن أول الأمر ... ثم أطعن ، وحركن أيديهن بالسيوف فى ضعف وفرق فأحدثن به جروحاً أيقظته ... فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن : « ويلاه ! بناتى يقتلننى ! ؟ » وخافت ميديا أن يبطل سحرها فبدت فى صورة إحدى بناته ، واستلت سيفاً مرهف السنان وأغمدته فى صدر الملك اللص ... فمات إلى الأبد ... وأغمض عينيه ليفتحهما فى هيدز ... وفى هيدز فقط ...

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التى يجرها الأفعوانان ، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج ، فركبتها ولاذت بالفرار قبل أن يكشف صنعها أحد !

سبحان مقلب القلوب !! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا ! لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً نقيين كالثلج !! لقد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث ، وأحب هذه المرة حباً صريحاً لايشوبه ذعر ... ولا تمكره التعاويذ ... ولا تتلفه رُقى السحر ... وأعلنت الخطبة ، فجن جنون ميديا ... واسودت الدنيا فى قلبها وعينيها ... وهالها تكران جاسون لجميلها الذى ناله مثنى وثلاث ورباع ... ولِمَ لا ؟ أليست هى التى مهدت له سبيله إلى العرش ؟ أليست هى قاتلة پلياس ... إذن فالويل له ! !

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله ؟ ... فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا ، ولكنها ماتت لساعتها ! أواه ! لقد كان الثوب مسموما ... وكان ما به من سم يكفى لقتل شعب بأسره ...

ولم تكتف الساحرة بذلك ، بل شحذت سكينها ، وأعادت مأساة أبستروس ، فقتلت جميع أبنائها من جاسون ... وأشعلت النيران فى القصر الملكى ... وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها إيجيوس ، ولتلق ثمت مصرعها

دريني خشبة